

علماء ومفكرون عريشتهم

محضر الأعراب

اللواء محمود شيت خطاب

دار الشروان للنشر والتوزيع

www.dawahmemo.com

كَانَ يَنْتَحِرُ بِقَابِلَةٍ فَذَهَبَ لِإِعْبَارِ
نَادِي سَعْيِ الْمَعَانِي، لِلِّيْجَامِلِ أَحَدِ
لِلَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَتَهُ
اللَّهُ وَسَوْلُهُ وَصَالِحَ الْوَصِّينَ».
لِلْمُغْزِيَّةِ عَلَى ، نَيَّا ، الرِّجْلِ ، مَرْجِسِتِ
دُعَاءً لَمْ يَعْرُفْ لَهُمْ التَّارِيخِ

وَالْمَدْرِسَاتِ فِي الْعَدْدَةِ الْخَسِنَةِ دَوْلَةِ

١٥

اللَّوَاءُ الْمُحْمُودُ شَيْتُ خَطَّابُ

إِنَّهُ الْمُفَكِّرُ الْإِسْلَامِيُّ الْمُعْرُوفُ مُحَمَّدُ شَيْتُ خَطَّابُ ، وَشَيْتُ هُوَ أَبُوهُ ،
وَيُضَيِّنُ اسْمَهُ بِالثَّاءِ جَرِيًّا عَلَى مَأْلُوفِ أَهْلِ الْمُوْصَلِ ، الَّذِينَ يَمْلُؤُنَ إِلَى هَذَا الْاسْمِ
لَا يُقَالُ مِنْ أَنَّ شَيْتَ بْنَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَدْفُونٌ فِي أَرْضِهِمْ .

مَوْلَدُهُ وَأَمْرُرَتِهِ :

وُلِدَ فِي الْمُوْصَلِ عَامَ تِسْعَةِ عَشَرَ وَتِسْعَمْتَةِ وَأَلْفِ الْمِيلَادِ مِنْ أَسْرَةِ قَوَارِثُتِ
الْعَمَلِ فِي التِّجَارَةِ وَتَرْبِيَةِ الْمَوَاطِئِ ، وَكَانَ جَدُّهُ خَطَّابُ مِنْ مُوسَرِي الْمُوْصَلِ ،
وَبِدَافِعِ مِنْ حُبِّهِ لِلَّدِينِ وَالتَّرَامِهِ شَعَائِرِهِ ، كَانَ يَتَمْنَى أَنْ يَكُونَ فِي ذُرِّيَّتِهِ مِنْ يَنْقُرُغُ
لِلْعِلَّوَمِ ، وَهَكَذَا وَجَهَ ابْنَهُ ، وَالَّذِي مُتَرَجِّمُ ، إِلَى هَذَا الْمُسْلِكِ ، فَدَرَسَ عَلَى بَعْضِ
شِيَوخِ الْمُوْصَلِ ، وَيُسَمِّي مِنْهُمُ الشِّيَخَ مُحَمَّدَ الرَّضَوَانِيَّ ، وَعَبْدَ اللَّهِ التَّعْمَةَ ، وَالشِّيَخَ
مُصْطَفِي بْنِيْكَ آلِ قَرْهَ مُصْطَفِي الَّذِي بَدَأَ حَيَاتَهُ الْعَلَمِيَّةَ عَلَى يَدِهِ ، وَاسْتَمْرَ كَذَلِكَ
حَقَّ تَخْرُجٍ عَلَى هُؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ ، فَجَعَلَ أَمْنِيَّةَ وَالدَّهِ الَّذِي كَانَ يَسِّرُهُ أَنْ يَؤْمِنَ
وَلَدَهُ فِي الصَّلَاةِ .

وَشَاءَ اللَّهُ لِمُتَرَجِّمِهِ أَنْ يَنْشَأَ فِي حَضَانَةِ جَدِّهِ لَأَبِيهِ ، إِذْ زَاهَمَ عَلَى أَمْهَهُ أَخْوَهُ

الأصغر الذي وافاها بعد سنة من ولادته ، فتولت تلك الجدة أمره مكان والدته واستمر ملازماً لها حتى وافاها الأجل .

ويحدث عن هذه الجدة وأثرها في طباعه ، فيصفها بالعقل والفضل . ولا غرابة في ذلك إذ هي من أسرة السيد محمد المعروفة بصحة نسبتها إلى البيت الحسيني ، ولا تزال الكثرة من هذا الحتد الشريف في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يغلب عليها الالتزام بروح الدين ، وتتوارث هذا المسلك جيلاً عن جيل ، ومن هنا كان لهذه الأسرة أثرها العميق في تكوينه النفسي .

يقول المترجم عن جدته : كانت تصحبني إلى المسجد القريب لصلة المغرب ، فإذا قضيت الصلاة أصغيت معها من مقصورة النساء إلى مواعظ الملك داود ، ذي الأسلوب المؤثر ، حتى تنهض لصلاة العشاء .. ومن ثم تصرف لتناول الطعام ، وربما طلبت عشاءها فلا تجده ، فلا تزید على أن تبتسم وهي تقول : لا يأس .. حصي في الجنة إن شاء الله . فإذا أورينا إلى النوم أخذت بذكر الله والاستغفار ، ثم لا تدعني حتى تتحقق من نومي ، فتتسلل لصلة القيام . ولطالما استيقظت على نشيجها أثناء ذلك ، فإذا ما شعرت بي عادت لتحنو عليّ . واستمر هذا دأبه حتى توفاها الله وأنا في السادسة عشرة ، فكان لوفاتها وقع لا يمحى .

بِيَثْتَهُ :

ويصف البيئة الاجتماعية المحيطة بذلك البيت فيقول : كانت تمتاز بالتعاون الودي والتعاطف الأخوي ، فالكل متشاركون في السراء والضراء ، ملازمون للصلة ، ملتزمون بالخلق الإسلامي ، فإذا افتقد المرض أحدهم زحفوا لعيادته ، فإذا كان المريض من ذوي الحاجة دسوا له في السر ما يقوم بأوده حتى يسترد عافيته .

مدارس ومساجد :

بدأ السيد المترجم دراسته في الكتاب، منطلق المعرفة الأولى، الذي شرع في التواري منذ شددت السلطات الرسمية سيطرتها على مراقب التعليم في البلاد الإسلامية، فتلقي بوأكير دراسته في القرآن والخط، حق إذا أصبح مؤهلاً للمدرسة الابتدائية انتقل إليها فألحق بالسنة الثانية، ومن ثم واصل دراسته هناك حق انتهى إلى السنة السادسة. ويضم المترجم إلى بيئة المدرسة هذه مجلس الحي الذي كان حق عهد قريب أحد مصادر التكوين الفكري في البلاد الإسلامية، وهو أشبه بنادٍ ليلي يقوم من كل حملة في قاعة خاصة من دار أحد الأعيان، حيث يتواجد الرجال لقضاء السهرة في جو من المودة الحالية. فيها هنا تحل المشكلات، وتقصّ الأخبار، وتقرأ بعض الكتب النافعة في الفقه أو الحديث أو التاريخ أو القصص.

يقول السيد المترجم : لقد كنت ألازم مجلس والدي هذا ، مع إني لم أكن قد تجاوزت الصف السادس الابتدائي بعد، فقد وقع اختيار والدي على اقراءة التاريخ على الحضور ، الذين كان معظمهم من أهل العلم المتقنين للعربية ، وكان ذلك بمثابة امتحان يومي بالنسبة إليّ ، لأن هؤلاء لا يرضون أن يغضوا الطرف عن أقل غلطة يعثر بها لساني ، فكانت مضطراً للعناية بقواعد اللغة ، وضبط الألفاظ كيلاً أ تعرض للوم والدي ، الذي كان يسره أن أكون في ذلك الامتحان من الناجحين .

ومن الابتدائية ينتقل إلى المتوسطة فالثانوية ، ولكنه لا يقف عند حدود مقرراتها، كدأب أمثاله من أبناء البيوت المعنية بالعلم، فيظل على صلة بمجتمعات الشيوخ حتى إذا وافت العطلة الصيفية لم يتمكن منها مطيبة للهو المضيع، كما يفعل تلامذة اليوم ، بل يعتبرها ، أو تعتبر له ، فرصة لضرب جديد من الجد في التحصيل عن طريق المساجد. ويقف هنا على ذكر واحد من الشيوخ الذين يحتفظ لهم بأطيب الأثر ، هو الشيخ قاسم الجليلي ، الذي يقول إنه كان فذا

في علم النحو ، ومن ميزاته في هذا الجانب كتابه « المستدرك على سيبويه » الذي لا يزال مخطوطاً .

ويقص علينا إحدى ذكرياته مع هذا الشيخ فيقول : وافانا رمضان في إحدى هذه العطل ، فكانت أحضر على الشيخ في ما بعد العصر من كل يوم ، حتى إذا قارب موعد الأفطار مضينا في الطريق إلى داره ونحن نواصل المذاكرة ، وربما انطلق مدفوع الإفطار ونحن غارقان في هذا الجو .

ومن هنا ، ومن قراءته التاريخ في مجلس الحي ، تبلور اتجاهه إلى اللغة والتاريخ . ولا ينسى أثر يد والده في هذا الجانب ، لما كان يجده من تشجيعه عليه ، وقد أقر الله به عينيه ، فشهد أولى بوادره في التأليف وذلك في كتابه الموسوم بـ « الرسول القائد » الذي صدر عام ١٩٥٨ م بعد أن قرأ له العديد من مقالاته في المجلة العسكرية من قبل .

دراساته العسكرية :

كان يتطلع إلى دراسة الحقوق إثر حصوله على الثانوية ، بيد أن الله شاء له غير ذلك ، فقد أعلنت وزارة الدفاع عن الحاجة إلى دفعه كبيرة للكلية العسكرية ، فقدم طلبه مع العديد من رفاقه ، وسافر معهم إلى بغداد ، وغرضه الأول من تلك الرحلة هو التفرج ومشاهدة معالم العاصمة التي لم يكن قد زارها بعد ، وما كان تقديمه الطلب إلى الكلية سوى وسيلة لتلك الفساد ، ولكن قدر الله أن تخرج قائمة المقبولين وعلى رأسها اسمه ، فلم يسعه سوى الالتحاق بالكلية . إلا أنه ظل قلقاً يود التخلص من ذلك الجو فلا يجد سبيلاً إليه ، لأن قادة الكلية وأساتيذها حبوا إليه البقاء ، وما زالوا به حتى رضي بالواقع . ثم ما لبث أن ألف تلك الحياة ذات النظام الصارم ، وجعلت نفسه تستريح إليها باطراد ، على أنه لم يستطع الانقطاع عن هواياته الأخرى من اللغة والأدب والتاريخ وبخاصة الثقافة الإسلامية .

ويقف هنا قليلاً ليؤكّد على أثر مكتبة آله في عقله وثقافته ، فيصفها بأنّها من المعمّرات ، إذ مضى على إنشائها سبعة قرون ، وهي لا تتفاوت تزداد اتساعاً بما ينضم إليها من جديد الأسفار . ويقدر عدد محتوياتها بخمسة وعشرين ألف كتاب ، بينها ديوان خطوط من شعر أبي تمام ، يتضمن اثنين عشرة قصيدة لم يسبق أن نشرت من قبل . ومن أجل ذلك تعتبر هذه المكتبة هي الأصل في الدار .. وكل شيء بعدها فعل الهاشم .

في سلاح الفرسان :

ويتخرج المترجم برتبة ملازم ثان لينضم إلى سلاح الفرسان .

ويتحدث عن واقع الحياة في الجيش العراقي آنئذ . فيرينا العجب العجاب من آثار التوجيه الاستعماري ، إذ كان كل شيء هناك يسير بالضبط في طريق التمييع والانحلال ، فلا يجد عاصماً إلا أن يكون مزوداً بالحصانة القادرة على الثبات في وجه الأعاصير .

سأله أمّر السرية الذي عين في كتبته : أتشرب؟ .. أتلعب القمار؟ .. أتحب النساء؟ .. ولما سمع نفيه الصارم لكل ذلك قال متبرماً : إنّ ضمك إلى نكبة على ..

وقد عرض سيادته أمثلة وافية من هذا الواقع في كتابه « بين العقيدة والقيادة » لا نرى حاجة إلى إعادةها هنا . ولكن إشارته العابرة هذه تأبى إلا أن تحرّك سواكن الذكريات لبعض ما نعرفه من الواقع المهاطل في أكثر من جيش عربي .

أثناء اختبار المقابلة في إحدى الثكنات العربية كان بين الأسئلة الموجهة إلى الطالب ما يلي بالحرف : « لو دخلت على أمك أو أختك أو زوجك فوجدت رئيساً لك يضاجعها .. فماذا تعمل؟ .. أي الرجلين بنظرك أعظم .. محمد أو جمال عبد الناصر؟

وبين يدي "الساعة العدد ٣٤٢ من مجلة «المجتمع» وفي صفحاته ٤٠ - ٤٢ صورة من المرافة التي ألقاها أحد المتهمين في قضية الكلية الفنية المعروفة في بلد عزيز آخر ، وفيها يقول : « بعد التحقيق بالكلية رأيت ... الفسق والفجور موضعًا للدح والمباهة ، ورأيت العفة والطهارة توضع في قفص الاتهام ... رأيت مخلوقات قد نقلوا موجة السخرية والاستهزاء بمنتهى الوقاحة إلى الحال تعلى .. حتى يلتفت بهم أن يتغنو بالأشعار والزجل لعنًا في مالك الملك .. وأخذت هذه الطائفة تزيد يوماً بعد يوم حتى أصبح هذا الوضع الحقير يمثل طابع الحياة من حولنا ... » .

في الدراسات العليا :

ويتابع سيادة المترجم سبيله في استكمال دراساته العسكرية، فيقضي سنتين في كلية الأركان ، يتخرج بعدها ضابط ركن ، ثم يبعث إلى كلية الدراسات العليا في لندن .

ويتحفنا الصديق الفاضل من أخباره في لندن بالطرفة التالية :

يقول : من المأثور أن يتولى مساعد الكلية تقديم الضباط القادمين من وراء البحار إلى عميدها عقيب وصولهم . وكان هذا العميد يومئذ أحد أبطال العبور إلى النورماندي أثناء الحرب العالمية الثانية ، فجعل يسأل كلاً من هؤلاء الوافدين عن حاله وبنته وما إلى ذلك . وجاء دوري فسألني : لماذا قدمت؟ .. قلت : لتجديد معلوماتي العسكرية ، ولتلقي أي جديد من العلم . فعقب على كلامي متوكلاً : بل قدمت لتعلم مغازلة الفتيات .

وكمضت غيظي ، وقلت في نفسي : إن هذا لا يلقي كلامه جزافاً ، وإنما يحكم عليّ بما شاهده في سوالي .. ولما ذهبت إلى السكن المخصص لي وجدت فرّاشاً وفتاة تعمل في ترتيب غرفة نومي ، فانتظرت في البهو دون أن أغيرها

اهتمامًا، حتى إذا خرجمت سألتني: هل لديك من توجيهات؟ قلت: شيء واحد.. هو أن تحضري لأداء مهمتك عندما لا أكون حاضرًا.

وأقبل المكلف بإعداد الطعام ، يسألنا عن الألوان التي نريد ، فعددت له المهرمات التي أرفضها، والألوان التي أرغب فيها . وكان معي ضابط من إحدى الدول العربية فقال : الأفضل أن تندمج معهم فنأكل طعامهم على اختلاف أنواعه . فقلت له: لك أن تفعل ذلك.. أما أنا فلن أغير من حياتي بمحاجلة لأحد . والعجيب أن هذا (المندمج) قد انتهى إلى الرسوب في حين ظفرت بالدرجة الأولى بين مئة ضابط من أشتات الجنسيات والله الحمد .

ويتم سياسته حديثه عن هذه المرحلة قائلاً : كان الفراش يلح عليّ بزيارة منزله كشأن سائر الضباط في التردد على مساكن فراشيم فأرد دعوته بلطف ، لأنني كنت موقداً أنه وسائر الخدم المخصصين لها ليسوا أكثر من جواسيس وموجدين ...

وذات يوم طرق بابي ففتحته لأرى وجه عميد الكلية يحييفي ، وفي أدب بالغ يعرض عليّ مرافنته وزوجه في نزهة بين الآثار .. وهناك بادرني بالاعتذار عما أسمعنيه في لقائنا الأول ، ويؤكدي العميق من احترامه وتقديره .

وليست هي بالمرة الأولى التي أواجه فيها مثل هذا الموقف من أجانب يحترمون كل من يختار نفسه وهويته .

ولعل أكثر ما يهمنا نحن من هذه الحكاية ما تحمله من إشارات عميقة الدلالة إلى تلك المغاسل الدماغية التي تهيأ في ظلماتها معظم الألغام الناسفة لمقومات الأمن والاستقرار في أوطان المسلمين .

عوامل وجهاً :

ما تقدم أمكنتنا الوقوف على اتجاهاته الفكرية إذ علمنا أن العربية والتاريخ هما موضع اهتمامه الأول ، وقد افتقنا معًا منذ تلك القراءات التي كان يكلف بها

في مجلس والده ولما يتجاوز نهاية المرحلة الابتدائية ، حيث كان يحاسب على كل لحنة فيدفعه ذلك إلى مزيد من الاهتمام بشئون اللغة ، وتواجهه من أخبار التاريخ الذي يقرؤه أحداث تهز مشاعره وتحرك تفكيره ، فتتami رغبته في متابعتها ، حتى أصبحت إحدى هواياته المفضلة . وطبعي أن يكون القرآن العظيم أثره الفعال في نفسه ، إذ كان أول ما تحرك به لسانه مطالع حياته التعليمية في ظلال الكتاب . ولا حاجة إلى التذكير بالرباط الوثيق الذي يجمع بين هذه المصادر الثلاثة في قلب الإنسان المسلم . أليست العربية هي المدخل إلى القرآن؟ .. والتاريخ مطلقاً .. أليس هو أحد مصادر العبر في دراسة الحياة الإنسانية من خلال هذا الكتاب الحكيم؟ .. ولا جرم أن من باشر التفاعل مع هذا الجو لا مندوحة له عن تتبع أحداث التاريخ الإسلامي ، الذي في مجاريه تتدفق الدوافع الجياشة التي انطلقت من منابع الوحي لتغير معالم الحياة البشرية جميعاً .

ولاننس هاتيك المؤثرات التي أحاطت به في كتف تلك الجدة التقية منذ فتح عينيه على الحياة ، إذ ألفى نفسه مغموراً بإيحاءاتها الروحانية ، وتوجيهاتها التعبدية والخلقية حتى سن المراهقة .

وأرى من المناسب أن أضم إلى هذه العوامل قصة حجه الأول ، فهي غير بعيدة عن هذا المجال من حياته ومؤثراته .

كان في الخامسة عشرة من سنّه ، وفي الثالثة من دراسته المتوسطة ، أيام مضى في بعثة للمعارف العراقية لأداء فريضة الحج . ويصف تلك الرحلة المباركة بأنها سعيدة ، لا تكاد ذكرياتها تفارق ذيوله ، إذ أنها تحدث له أن يشاهد عن كثب مواطن الوحي ، ومعالم الحياة التي طلما استهواهه أخبارها من خلال السيرة النبوية . ولما عاد إلى بلده نعم بمحظه من تلك الاختفالات المؤثرة التي تدخر في العادة لاستقبال العائدين من الحج . ومن ذلك اليوم أضيف إلى اسمه لقب الحاج ، الذي يفرغ على صاحبه التقدير والمهابة .

وطبيعي أن وضعاً كهذا لا مندوحة له أن يترك طابعه في العمق من أفكاره ومشاعره ، فمن حقه إذن أن يحسب بين العوامل الأخرى التي تمازجت كلها في كيانه .

في مهب العاصفة :

لا يسع مؤلفاً يترجم مثل هذه الشخصية العسكرية أن يغفل الجو العام الذي عاصره سواء في بلاده العراق أو ما حوله من أقطار العرب ، أو ما أحاط بها من أرجاء العالم الإسلامي .. وما وراءه من أوضاع عامة تتناول المعركة بأجمعها. وحسبنا أن نشير من ذلك إلى أبرز الأحداث التي رافقت نشأته في العراق والأجزاء التي كانت أكثر اشتراكاً في تلك الأحداث من الوطن العربي .

فهناك الاحتلال الذي شمل سائر أقطار العرب والمسلمين خارج نطاق نجد والجهاز .. ومعه الاستعمار اليهودي الذي خطط له عبر القرون وقبل عشرات السنين في بازل ، وقد أقبل لتحقيق أبعاده بقوة الحراب البريطانية ، ومن ورائها الشكنة اليهودية الأم أميركا . وفي هذا الجو الرهيب من التنكيل والتذليل تفجرت الثورات الإسلامية لتواجه الحديد والنار بكل وسائل المقاومة التي ورثتها من عزة الإسلام .. فمقاتلون يتربصون للعدو في الجبال وزوايا الشوارع والحقول من أقصى البلاد إلى أدنائها ، حتى إذا تحطم السلاح المحدود تحت دفق السلاح غير المحدود ، تحولت النكمة إلى ألوان من التحدى الجبار بالإضرابات المتلاحقة ، والظاهرات المتتابعة ، تجاهه الرصاص والقذائف بالصدور العارية فتساقط الضحايا كأوراق الشجر عصفت بها زوابع الخريف .

ومن خلف هذه الضروب الدامية من النضال تتسلل الأيدي الحقيقة إلى معاقل التراث الروحي والفكري في الظلام ، فتعمل فيه تخريبًا وتحويرًا ، لتتضي على بذور الجهاد الإسلامي في النشر القادم ، حتى إذا نفت مقومات الكفاح بانتهاء بقايا الجيل المقاوم ، لم يبق أمام المستعمرو ما يخشاه على سلطانه

من الوارد الجديد ، الذي لا بد أن ينسى صلته ببنابع العزة فيخضع للواقع ، ويزداد كل يوم إعجاباً بحضوره هذا . الغادر المحتل ، حتى يصبح بمحض اختياره ذيلاً تابعاً لهواه يحركه أنى شاء ، وفي كل اتجاه .. حتى إذا انتهى دور الاحتلال العسكري في بلاد العرب ، وتوارى جنوده وطواقيته عن أعين الناس ، جاء دور خلفائه الذين أعدهم لهذه الخلافية ، فراحوا يتمسكون ما بدأه من تدمير لبقاء حصنون الإسلام بألوان من العدوان لم تعرف لها شعوب المنطقة شيئاً على أيدي أساذتهم الأولين .

ذلك هو الجو الذي عاش المترجم أحدهاته منذ تفتح وعيه .. وقد توافر له من ميراثه الروحي الذي سبقت الإشارة إليه ما عصمه من الانزلاق في المهاوي التي دفع إليها الأكثرون من أبناء جيله ، فكان واحداً من الفئة التي تماستك أمام العاصفة ، وحملت تراقب خلفيات الواقع لتتبين طريقها القويم من خلال ركام الضباب .

أحداث شارك فيها :

وفي إيجابته على الاستطلاع الثامن لم يبعد بنا عن ذلك الجو ، فهو يحدثنا عن طائفه من الأحداث التي شارك فيها وشاركت هي في بنائه الذاتي .

فأول هذه الأحداث ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١م الذي انتهز فرصة انشغال العدو بالحرب العالمية الثانية فحشد القوات لتطهير العراق من أوزار الإنجليز . وسرعان ما هزت هذه الحركة الضئائر ، وأيقظت ما غفا من العزائم ، فجددت الآمال بالخلاص الذي طالما بذلت الجهد وسقطت الضحايا لتحقيقه ، فحالت دونه الموائل .

وينحوض المترجم معظم المعارك التي تلاقي فيها الجيش العراقي بقوات الاحتلال . وكان أثناء تلك ضابط ركن في لواء الخيالة المرابط في (أبو غريب) على بعد ٥٠ كم من الفلوجة (الأنبار) التي شبت في ساحتها أهول المعركة . ومع القطعات

الزاحفة إلى هناك ، ماضى للقيام بواجبه في لقاء العدو ، ولكن طائرات الباغين كانت تسيطر على فضاء الملحمة ، فكان نصيب اللواء منها قليلة توفرت شظاياها في كل موضع من جسمه ، على صورة أياست الأطباء من إمكان بقائه على قيد الحياة ، إلا أن الأجل غلب العلم ، فكتب الله له الشفاء لكي يتم مهمته المقدورة في خدمة دينه وأمته .

ويقع ثاني هذه الأحداث أيام العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م ، وكان اللواء آخر كتيبة في الموصل ، وقد ملأت التظاهرات الشعبية أنحاء العراق ، احتجاجاً على المعذبين وأنصارهم . وزحفت الجماهير الغاضبة على مؤسسات تلك الدول تحطم كل ما تصل إليه أيديها . وبلغت الحماسة أوجها في الموصل ، وسقط العديد من القتلى بالتصادم بين الشرطة والمتظاهرين .. وهناك جاءه الأمر من العاصمة بنزول الجيش للسيطرة على الموقف ، ثم تالت الأوامر بوجوب الضرب منها تكن النتائج بعد أن بلغت التظاهرات يومها الحادي عشر .

يقول اللواء : كان من غير العسير على تفريق المجموع دون ما حاجة إلى إطلاق أي رصاصة ، إلا أنني لم أكن مقتنعاً بهذا العمل ، بل كنت موقناً أن هذا التظاهر أقل مما يجب على العراق لنصرة الشقيقة مصر . ولهذا تجاهلت أحد عشر أمراً بالرمي ، وأصررت على هذا التجاهل ، فكانت عقوبتي هي نقلني من بلدي إلى جنوب القطر .

وطبيعي أن يكون له نصيبه من أحداث العهد الأحمر ، الذي سلط عبد الكريم قاسم وفاضل عباس المهداوي ، على مقدرات العراق فيما بعد .

كان المترجم ، بحكم كونه رئيس هيئة أركان حرب ، مسؤولاً عن أمن الجنوب كله ما بين بغداد والبصرة ، فكان ذلك بثابة حماية أناحها الله لذلك الجانب من العراق ، فلم يجد القتلة الهر منفذًا إليه ، على الرغم من كل المحاولات التي بذلوها ، بعد أن فرضاً على سائر الأنحاء جواً من الرعب لم يعرف له التاريخ نظيراً ،

اللهم إلا أيام مزدك في فارس ، والقراطمة في العراق والجهاز ، والثورة البلشفية في روسية ، ثم الثورة الثقافية في صين ماوتسي تونغ .

يقول الصديق الفاضل : لقد وضعت أجهزة الدولة كلها تحت تصرف الشيوعيين ، فلم يحل بينهم وبين ما يشتهون ، فهم يقتربون الدور ، ويحرّون الرجال إلى القتل خنقاً أو سحلاً في الشوارع العامة ، ويستخدمون لذلك سيارات الجيش وما شاؤوا من أسلحته وأدواته ، ولا حاولوا أن يفعلوا ذلك في منطقة عملي واجهتهم بالرفض الصارم ، ومحجزتهم عن كل عدوان .

ويقول المترجم بهذه المناسبة : لم يكن عبد الكريم قاسم شيوعياً ، ولكن كان مضطراً للاستعانة بهم ، وبخاصة في تلك الأثناء التي اندلعت فيها ثورة الشواف بالموصل ، فأطلق أيديهم يعملون ما يشاؤون دون حساب ولا رقيب .. ولم يكن يسعهم الصبر على موقفي منهم فاتصلوا به يستعدونه على ، فبعث إلى المنطقة بضابط يصلح لتحقيق رغباتهم ، وما لبثوا أن تجمعوا حوله ليخطب فيهم داعياً إياهم إلى سحل كل ضابط ومدني يقف في طريقهم أو لا يؤيد ثورتهم ، فكان على أن أتدارك ما أمكن من الخطر ، فدخلت على هذا الضابط أحذره مغبة تصرفه .. فلم يكن منه إلا أن اتصل بعد الكريم قاسم طالباً إليه التدخل لاقصائي عن طريقهم . وهكذا تم لهم ما يشاؤون ، وكانت ذلك في الهزيع الأخير من إحدى ليالي رمضان ، حيث وافتنى ثلاثة من جنودهم فأعتقلتني ، ثم حللتني في حراسة مشددة إلى السجن الشخص لأعداء الثورة في بغداد .. واستمر وجودي هناك مدى ثانية عشر شهراً مشحونة بألوان من التعذيب الذي يعجز الوصف .

رأيه في حركة الشواف :

وعلى ذكره لحركة الشواف رأينا أن نستطلع معلوماته عنها بعد أن كثرت فيها الأقاويل ، ما بين مبرىء ومسوغ .. فكان من جوابه على ذلك

أن حركة الشواف مبرأة من كل دافع حزبي، لأن المخططين لها كانوا من العناصر العربية في الجيش العراقي، وقد هاجم ما رأوه من زيف المتسلين والمحارفthem في تيار المجرمين الحاقدين، فاتفقوا على تصحيح الأوضاع، وحددوا لذلك ساعة البدء، بحيث تتطلق الحركة في كل مكان وفي آن واحد لتنفيذ المخطط المتفق عليه.. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ علم الشواف أن عدداً من ضباط الحركة في الموصل قد تقرر اعتقالهم، فلم يجدوا بدأً من التسخّل في العمل، وهكذا سبقوا الموعد بأربع وعشرين ساعة، وفوجيء إخوانهم بالأمر، فلم يتمكنوا من القيام بأي تدبير. وبذلك قضى على الخطّة، ووقفت الواقعه التي ذهبت بخيرة عناصر الجيش بين سجين ومسرّح وقتيل.

العمل الأشقر :

وعن عمله في التدريس يذكر من مجالاته فيها ، الكليات العسكرية ، وكليات الأركان ، والجامعات الأخرى في العراق وغيره .. ثم معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة .

ويقول عن التدريس إنه في تقديره أشق حتى من العمل العسكري لمن يستشعر حقه ويريد أن يؤديه على الوجه الأكمل ، ويتمثل بذلك بأن نصابه الأسبوعي في المؤسسات التي درس فيها لم يتجاوز الساعتين ، ومع ذلك كان تحضيراً لموضع يستهلك من وقته أكثر من ثلاثة ساعات .

أما علاقته بطلابه فيحمد الله على أنها قائمة على المودة والتعاون ، فلا يذكر أي سبب حاد به عن هذا الطريق قط ، ولا يعرف بين طلابه الكثرين واحداً لا يبادله التقدير والحب .

ومن ذكريات هذه المرحلة يعرض للحادث التالي :

يقول : ذات يوم كنت ألقى محاضرة في القاهرة عن نكبة الـ ١٩٦٧ م وأعدد أثناءها بعض مواطن الخطأ العسكري ، فاعتراضي واحد من الاتحاد

الاشتراكى يقول : إنها نكسة .. نكسة فقط .. وقد أصابت النكسة رسول الله نفسه في أحد .

فكان من ردِي على هذا الرجل : إنها ليست نكسة .. بل هزيمة ، لا .. بل فضيحة لا مثيل لها في تاريخ الحروب . إن ما تسميه نكسة في أحد لم تكن من أخطاء القيادة ، بل من أخطاء الجنود ، ومع ذلك فقد قاد رسول الله ﷺ المسلمين لطاردة المشركين في اليوم التالي حتى حمراء الأسد .. فهل طارت القيادة الحاضرة إسرائيل منذ ذلك اليوم ؟

وأعقب ذلك الرد ضجة بين الحضور سرعان ما أخرست ذلك المترافق .

على أن في ذلك النقد الصريح لأخطاء القيادة ما يشد الذهن إلى موقف آخر للواء لا يحسن أن تخليه منه هذه الترجمة ، وبخاصة أنه يتصل بصمم المعركة التي يعالج نتائجها بهذا النقد .

ففي كتابه « الأيام الخامسة » يتحدث عن تنبيةات سبق أن وجهها إلى قادة دول المواجهة قبل المهمة الشرسة ، التي أطاحت بسمعتهم وبركتة شعوبهم عام ١٩٦٧ .

لقد بلغت به الدقة في رصد التطورات التي كانت تتمحص بها المنطق آنذاك ، إلى حد أن يؤكّد عزم إسرائيل على التحرك الإنزال ضربتها في اليوم نفسه الذي قررته وهو الخامس من حزيران . ونشر ذلك في جريدة « العرب » البغدادية يوم الأول من الشهر نفسه .. ولكن صيحته ذهبت مع الريح ، لأن الغرور والجهل قد أصما آذان المسؤولين أثناءها فلم يسمعوا سوى صوت الشيطان الذي سبق أن غرر بأسلافهم يوم بدر ، حتى إذا نزلت بهم الكارثة ولـى هارباً وهو يقول : « إني أرى ما لا ترون ... » .

وقد قدر لهذا الألمعي خبرته حق قدرها ذلك المؤلف الإسرائيلي الذي عرض لإإنذار اللواء محمود بشأن تلك الحرب ، فقال عنه في كتابه

«الحرب بين العرب وإسرائيل» إنه أكبر عقلية استراتيجية في العرب ، ولتكن كالنبي في الصحراء .. لا يجد من يستقيده منه .

في التأليف :

ويذكر أن له من التأليف أربعة وتسعين كتاباً ، يقسمها أربعة أصناف :

- أ - كتب عسكرية فنية تدرس في الكليات العسكرية وكليات الأركان .
- ب - التاريخ العسكري الإسلامي .
- ج - العسكرية السياسية .
- د - اللغة العسكرية .

ويعتبر كتابه «الرسول القائد» أحب مؤلفاته إليه ، ويقول إنه أول كتاب له ، وقد ظل قرابة العشرين من السنين يعده ويستعد له قبل أن يقدمه إلى النشر ، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية وأكثر من لغة إسلامية .

وهو على الرغم من كثرة تواليفه لا يعد نفسه كاتباً محترفاً بل هاويًا فقط ! والذي أفهمه من هذا الوصف أنه لا يكتب ما يريد الناس ، بل ما يشعر بالحافز الذاتي إلى كتابته .

ونظرة واعية متأملة إلى موضوعات هذه الكتب ، وإلى علاقتها بصالح الفكر الإسلامي ، وحاجة الجيل المعاصر إلى تدارسها .. تؤكد أن الهواية التي يشير إليها لا تعدو كونها تعبر المسلم الملتم عن رغبته في التوجيه إلى التي هي أقوى .

ويشخص دوافعه إلى التأليف في الجانب التاريخي قائلاً : في الكلية العسكرية لاحظت أن الأمثلة التي تعرض من تاريخ الحرب كلها أجنبية .. والأغرب من ذلك أن يكون معظمها عن القادة الذين فتحوا للاستعمار بلاد العرب والمسلمين . ولا حوصلة لذلك سوى تعميق الانبهار بهم في نفس الضابط ، وغرس الإيمان

بتتفوق أعداء أمته عليها في كل شيء .. وهناك كنت أتساءل : لم لا نستمد هذه الأمثلة من تاريخنا وهو بها أغنى وأحفل ؟ ثم أدركت أن وراء ذلك أمرين : الجهل بباقي هذه الأمة ورجاها . والثاني المنهج الخاطئ من قبل المستعمرين لسحق معنويات المسلمين .. ومن هنا جاءت رغبتي في إحياء هذه المنسيات والكشف عن تلك المؤامرات ، فحزمت أمري على العمل بكل ما أمكنني لسد هذا الفراغ في مكتبيتنا العسكرية .

وعن بواعته لإخراج كتابه المعروفة عن « طبقات القيادة » يقول : عندما كنت في سجن بغداد سألت العديد من الضباط عن القادة الذين فتحوا بلادهم ، فلم أسمع جواباً سديداً ، بل لم أسمع جواباً قط ، ومن هنا وجدتني مدفوعاً إلى تيسير هذه المعلومات الأساسية بالكتب المناسبة .

ومنذ العام ١٩٦٧م توقف – يقول – عن الكتابة في هذا الجانب من التاريخ ، لينصرف إلى الجوانب الأخرى التي كشفت نكبة ذلك العام عن مسيس الحاجة إليها في صفوف العسكريين ، وبخاصة أنه يعتبر جهل العرب بال العدو الذي حاربوه كان السبب الأكبر في هزيمتهم أمامه . وهكذا أكب منذئذ على الكتابة في الدراسات العسكرية ، فكان من ذلك « الوجيز في العسكرية الإسرائيلية » و « العسكرية الإسرائيلية » و « حقيقة إسرائيل » و « دراسات في الوحدة العسكرية » و « أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية » و « طريق النصر في معركة الثار » و « الأيام الخامسة قبل معركة المصير وبعدها » وما إليها .

وتقوده دراساته وخبراته العملية والنظرية في المجال العسكري إلى وجوب العناية بتوحيد المصطلحات العسكرية في الجيوش العربية ، فدعا إلى تكوين لجنة عامة من ذوي التخصص ، تتفرع لوضع معجم عسكري موحد – بالكسر – واستجيب لدعوته فتألفت اللجنة ، واختير مثلاً المجمع اللغوي المصري فيها ورئيساً لها ، وعن هذه اللجنة صدر المعجم العسكري الموحد في أربعة أجزاء ،

إنجليزي عربي وبالعكس ، وفرنسي عربي وبالعكس . وكان لهذا الصنيع مردود عال ، إذ قدم للجيوش العربية واحداً من أهم الوسائل المهمدة لوحدتها . هذا فضلاً عما في هذه الأعمال من دلالات على اهتمام المترجم بخدمة اللغة التي درج على حبها منذ نعومة أظفاره . وحسبنا أن نشير من ذلك بوجه خاص إلى ذلك الجهد الكبير الذي اقتضاه تتبع كلمات القرآن الكريم لاستخراج ما يتصل منها بالمصطلحات العسكرية . وفي هذا ألف الجزأين من كتابه « المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم » وكذلك عني باستخراج ما انطوى عليه كتاب ابن سيده « المخصوص » من هذه الأصول التي لا يستغني عنها من يهمه صيانة العربية من غزو اللغات الأجنبية .

مستقبل الجيش :

ونصل من الاستطلاع إلى الفقرة الثانية عشرة، لنستمع إلى رأيه في مستقبل الجيش الذي يسهم في خدمته مع إخوانه رجال الفكر والدعوة ، فيأتينا جوابه مكتفياً في هذه الكلمات .

يقول سعادته : إن قوى هائلة تعمل على تحطيم هذا الجيل ، وتفتتت قدراته ، وكانت من قبل مقصورة على العدو الخارجي ، أما اليوم فقد وجدت لها مرتکزات لا تُحصى في الداخل . وهو لا يفرق بإذاء هذه القوى ما بين قطر وآخر من ديار المسلمين ، بل يعتبر الحنة متشابهة فيها جميعاً .

ويقول : إن أفكاره حول هذا الموضوع مبثوثة في العديد من مقالاته ومصنفاته ، ويخص بالذكر منها كتابه « بين العقيدة والقيادة » و « الإسلام والنصر » وفي كل من العنوانين صورة بلغة التعبير عن وجهة نظره في هذه الناحية ، وتركيز دقيق على ارتباط مستقبل هذا الجيش صعوداً أو هبوطاً بمعنى التزامه هداية الإسلام ، أو إعراضه عنها .

مهمة العلامة :

وبمثل ذلك الإيجاز البليغ يصوغ سيادته الجواب على أخرى فقرات الاستطلاع ، وهو يحدد مهمة العلماء ومدى إمكاناتهم في ضبط مسيرة الجيل ، والعمل على تحقيق المجتمع الإسلامي المتكامل .

يقول فضيلته : لكي يتمكن العالم الإسلامي من النهوض بكل هذا العبء لا مندوحة له عن شروط ثلاثة : سعة الأفق العلمي التي تمكن من فهم عصره وما يعتوره من مشكلات ، وما تتطلبه من الحلول في ضوء الإسلام .. ثم الإخلاص لله بمحاجة لا يخاف في الحق لومة لائم ، والثالثة الحفاظ على كرامة العلم ، فلا يتنهى بال الحاجة لغير الله .

ففي رأيه أن عالماً يستكمل هذه العناصر لا بد أن يكون موضع التقدير والأسوة للشباب الذين يتعدرون عليهم أن يستسلموا لغير الحقائق .

ويؤكد على هذا الرأي قائلاً : إن المسلمين اليوم في حاجة ماسة إلى قادة كخالد والمنسي و ... إلا أن حاجتهم إلى العلماء العاملين أمس وأشد .

هناك أزمة ثقة بين الشيوخ والشباب ، ومرد هذه الأزمة إلى فقدان عنصر القدوة الصالحة في معظم الذين يعودون في الشيوخ ، ويظنون أن كل ما عليهم هو أن يحسنو عرض الموعظة السطحية ، ولو كان سلوكهم الشخصي أبعد ما يكون عما يدعون إليه .

نحات من شعره :

وحتى الآن كانت الصورة البارزة للمترجم أنه الرجل العسكري المثقف ، الذي وقف قلمه على هذا الجانب من تخصصه في كل ما كتب وألف وحاضر ، وهو اتجاه لا ينتظر معه أي نزوع نحو الشعر ، وما يحفز إليه من هنافات الخيال

لنستمع إليه يرسل هذه الزفرات في رثاء جدته :
ذكرى الشعراء الفرسان الذين جمعوا بين صناعة الموت ورقة الأفئدة .
وموجات العواطف . ولكن سيادة الأخ العزيز قد أبى إلا أن يجدد - ولو إلى حد-

أجهدت نفسك فاستريح قليلاً
نزلت عليك مصائب الدنيا ولو
ووجد القنوط إلى الرجال سيله
ولرب فرد في سمو فعالة

قد كان عبئك في الحياة ثقيلاً
نزلت على جبل حرث مهلاً
وإليك لم يجد القنوط سيلها
وعلاوه خلقاً يعادل جيلاً

إِنَّا أَبْيَاتٍ عَلَى قُلُّتِهَا تَعْكِسُ ثِقَافَةً أَدِيبٍ مُتَمَكِّنٍ كَمْلَتْ لَهُ الْأَدَاءَ، فَهُوَ
يَتَذَوَّقُ سُرَّ الْحَرْفِ، وَيَحْسَنُ تَأْلِيفَ النَّغْمِ الْمُؤْثِرِ.. وَتَسْتَجِيبُ لَهُ الْقَافِيَّةُ فِي عَفْوِيَّةٍ
لَا تَتوَافَرُ إِلَّا لِلشَّعَرَاءِ الْمُتَمَرِّسِينَ.

وفي فلسطين تسترد قواته مدينة جنين من قبضة العدو بعد تركيزه فيها ، فكان لذلك أثره المشكور في نفوس أهلها ، الذين قابلوها هذه المرة بالمرارة البالغة . ولما حان موعد انصراف هذه القوات – إلى العراق – إثر وقف القتال المفروض شيعت جنين منقذتها بكل مظاهر الاعتراف بالحمل .

وفي أحد تلك الاحتفالات ، وقد 'قصد لإقامةه في المقبرة التي خضت
شهداء تلك القوات ، وقف اللواء الركن ليبرد على تحية الأخوة بهذه
النفاثات اللاذعة :

غزو اليهود وصاولوا العدوانا
 بهظته أعباء الجهاد فلانا
 أيصير ملكاً لليهود مهانا !
 لا يرتضي للمسلمين هوانا
 ليس الخلود لمن يعيش جبانا
 إني لأشهد أن أهلك قاوموا
 فإذا نكبت فلست أول صارم
 مرج ابن عامرَ خصبة دماءنا
 إني لأعلم أن دين محمد
 وهو الخلود لمن يموت مجاهدا

ومع أنها نظمت في وقت لا يتسع للتنقيح - كما يقول - فقد حفلت بصور
 مكثفة للواقع الرهيب الذي أحاط بقضية فلسطين ، ثم انتهى إلى انسحاب
 «المجيوش السبعة» لتدع العدو مطلق اليدين في الأرض الحبيبة يتصرف بها
 وببقايا أحفاد الفاتحين فيها كما يشاء .

شهادات غير مكتوبة :

وبعد فهذه خطوط عجل حاولنا بها الدلالة على شخصية لم يعد في أواسط
 المثقفين من العرب والمسلمين من يجهل مكانتها وآثارها . وقد بقي علينا أن نخت
 هذه الخطوط بإشارة أخرى إلى المراكز الرسمية التي شغلها ولا يزال يشغل
 بعضها حتى اليوم .

أول هذه المراكز رتبته العسكرية التي أصبحت لقبه الذي لا يفارقه عند
 كل تعريف ، وهو أنه لواء ركن باستحقاق أكثر من عشرين سنة في الجيش
 العراقي ، ومميزات عملية لم يقترب منها كثيرون من أعطوا أنفسهم أو أعطوا
 مثل هذه الألقاب .

ثم تأتي مراكزه العلمية :
 فهو عضو الجمع العلمي العراقي .
 وعضو بجمع اللغة العربية بالقاهرة .
 وعضو بجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

ورئيس لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية في جامعة الدول العربية .

وقد اختير عضواً مؤسساً في مجلس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، ثم عضواً في المجلس الأعلى العالمي للمساجد التابعة للرابطة .

وأخيراً لا ننسى أنه شغل المناصب الوزارية سبع مرات .

وليس هذا وذاك سوى شهادات غير مكتوبة تؤكد إجماع الأوساط المختلفة من عسكرية وعلمية ودولية وإسلامية على أن هذا الرجل موضع التقدير والإعجاب والثقة من الجميع ، وعلى سائر المستويات .